صورة الآخر في كتابات بروديل: (الإسلام -القضية الموريسكية – اليهود)
بوجلال مسعودة ، المجلد الخامس عشـر، العدد 2 ديسمبر 2025،
ص ص 63- 83
DOI: 10.54242/1702-015-002-005

ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

صورة الآخر في كتابات بروديل: (الإسلام -القضية الموريسكية – اليهود) أنموذجا.

The image of the other in Braudel's writings: Islam and the Morisco-Jewish issue.

مسعودة بوجلال (*)

جامعة أم البواقي ،الجزائر

مخبر البحوث و الدراسات الإستشراقية،

سيدي بلعباس

boudjellal.messaouda@univ-oeb.dz

تاريخ الإيداع: **2025/05/18** تاريخ القبول: **2025/12/15** تاريخ النشر: **2025/12/28**

الملخص:

لقد شكلت كتابات فيرناند بروديل في القرن العشرين محطة رئيسية في مسار علم التاريخ الغربي بوجه عام والفرنسي بوجه خاص، في فترة تميزت بغلبة التحليل البنيوي معتمداً على إخراج البحث التاريخي من القوقعة السياسية، واستبعاده السرد التعاقبي للأحداث التاريخية في تاريخ شامل يتناول مجمل وقائع الإجتماع البشري من جغرافية واقتصادية واجتماعية وسياسية وحضارية . كان بروديل شغوفاً بالبحر الأبيض المتوسط هذا الأخير الذي ارتبطت به حياته منذ شبابه والذي كرسه الجزء كبير منها ليفهم أحداثه ووقائعه وتقلباته. وفي هذه الدراسة سنتناول طرحه لقضايا تاريخية مثلت نقاطا مفصلية في التاريخ الحديث لا سيما ما تعلق منها بالأحداث التي شهدها العالم الإسلامي مجسدا في القضية الموريسكية وكذا الطائفة اليهودية خلال القرن 16م.

الكلمات الدالة:

بروديل؛ البحر المتوسط؛ العالم الإسلامي؛ الموريسكيون؛ اليهود.

Abstract:

Fernand Braudel's writings in the twentieth century have made a major impact in the field of Western historiography in general and French in particular. At that time, these writings were based on the structural analysis depending on excluding the historical research from the political orientation and moving it away from the excessive narration of the historical events in a history that deals with all the

(*) المؤلف المرسل: مسعودة بوجلال boudjellal.messaouda@univ-oeb.dz

صورة الآخر في كتابات بروديل: (الإسلام -القضية الموريسكية – اليهود)
بوجلال مسعودة ، المجلد الخامس عشـر، العدد 2 ديسمبر 2025،
ص ص 63- 83
DOI: 10.54242/1702-015-002-005
ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

historical events of human beings such as the geographical, economic, political, sociable, and cultural.

ones Braudel was so passionate about the Mediterranean, where he showed strong attachment since his youth, In this study, we will discuss his presentation of historical issues that represented pivotal points in modern history, especially those related to the events witnessed by the Islamic world, embodied in the Morisco issue, as well as the Jewish community during the 16th century AD.

Key Words:
Fernand Braudel; Mediterranean Sea; Islamic world; Moriscos; Jews.

****

مقدمة :

لقد شكلت كتابات فيرناند بروديل في القرن العشرين محطة رئيسية في مسار علم التاريخ الغربي بوجه عام والفرنسي بوجه خاص. هذا المؤرخ الذي درس الحضارات بروح تأليفية عالية، وارتقى ونأى بنفسه عن الذهنية المتمركزة والمتمحورة حول الذات الأوربية، وعن ذلك الاستعلاء الذي طبع أغلب الكتابات الغربية حول العوالم الأخرى. ويظهر جهد بروديل في تناول التاريخ إنطلاقاً من تعدد الأزمنة أو الآماد، كشبكة من المفاهيم لإدراك التاريخ، من البنيات أو الزمن الطويل إلى الأحداث، مروراً بالزمن الدوري، مع التركيز على الأمد الطويل، كما يتبين لنا من خلال كتابه المرجعي المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني، هذا الأخير الذي ألفه بروديل بعد أن اكتشف مفاتن البحر الأبيض المتوسط الذي ارتبطت حياته به منذ شبابه.

ولم يتوان بروديل من حينها في تناول قضايا البحر الأبيض المتوسط سواء تعلق الأمر بتأليف الكتب أو كتابة المقالات في المدونات الفرنسية، وهذا ما سيسمح لنا بإعطاء صورة عن توجهات الكتابة الغربية حول الصراعات والقضايا القائمة في حوض البحر المتوسط لاسيما بين الإسلام والمسيحية. وعليه نطرح التساؤل الآتي: كيف صور المؤرخ الفرنسي بروديل قضايا البحر الأبيض المتوسط خاصة ما تعلق منها بالإسلام والظروف المحيطة بكل من القضية الموريسكية وكذا الطائفة اليهودية؟ وهل تأثرت كتاباته بنظريات المؤرخين الاستعماريين في إعطاء صورة واضحة وحقيقية لحقيقة ما كان يحدث؟

1- التعريف بفرناند بروديل:

صورة الآخر في كتابات بروديل: (الإسلام -القضية الموريسكية – اليهود)
بوجلال مسعودة ، المجلد الخامس عشـر، العدد 2 ديسمبر 2025،
ص ص 63- 83
DOI: 10.54242/1702-015-002-005
ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

ولد بروديل في 24 أوت 1902م، في قرية فرنسية صغيرة، تدعى لوميفيل في شمال شرق فرنسا، وهناك أمضى السبع سنوات الأولى من عمره. وفي عام 1909م انتقل للعيش مع والديه في العاصمة باريس وزاول دراسته الابتدائية هناك[1]، تخرج من مدرسة المعلمين العليا Ecole (Supérieure Normale) بشهادة الكفاءة وأصبح مبرزا (Agrégé) في التاريخ، عام 1923م[2] ، والتحق للتدريس بالجزائر في مادّة التاريخ خلال الفترة الممتدة ما بين 1923م إلى 1932م[3]، وفي فترة تواجده بها اكتشف بانبهار شديد، مفاتن البحر الأبيض المتوسط[4]. وقد قال عن ذلك مدهوشاً وبسرور كبير:" كانت بالنسّبة إليّ مفاجأة وبالها من مفاجأة، لم أكن أعرف البحر، ولما رأيت المتوسط، تيقنت أنه هدية من الآلهة... وكانت مدينه الجزائر أجمل مدينة فرنسية بعد باريس، وهي مدينة مغايرة تماما بجمال شوارعها وكذا حسن وجمال نسائها الأخاذ... فهي تحوي كل ما يمكن أن يشتهيه المرء ... لقد أحسست أني بدأت أعيش حقا"[5].

وهناك أعد أطروحته "البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني"، تحت إشراف أستاذه لوسيان فيفر. وقد مكنه ذلك من إعتماد مصادر أرشيفية بمخازن موانئ ضفاف البحر المتوسط وكتابة أطروحة ضخمة تتكون من 1160 صفحة في طبعتها الأولى و1220 طبعتها الثانية[6]. وقد تضمنت أطروحته دراسة بنيوية لوسط جغرافي معين نظر إليه من زاوية تاريخية على أساس الجغرافيا كعلم مساعد للتاريخ، وكفرع معرفي تاريخي، بهدف المزج وتكريس التظافر والتقارب بين علمين اجتماعيين وهما التاريخ والجغرافيا -خلق جغرافية بشرية-[7]. وهذا ما ضمنه في كتابه الضخم الشهير "المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني"، في طبعته الأولى الصادرة عام 1949م والتي إستهلها بعبارة: "لقد أحببت البحر الأبيض المتوسط بقدر كبير من الشغف، ربما كان ذلك لأني آتٍ من الشمال، مثل آخرين كُثر، وبعد آخرين كثر. وكان من شأني أن أكرس له وبكل فرح سنوات دراسة طويلة. وفي المقابل آمل أن جزءاً من هذا الفرح وكثيرا من نوره سوف يضيء صفحات هذا الكتاب."

وقد كان بروديل في فترة تواجده في البرازيل بكلية الآداب بساوباولو (1935-1937م)؛ منشغلا جدًا بإعداد أطروحته حول البحر الأبيض المتوسط[8]. وفي هذا الصدد ذكر قائلا: "وأما عن البرازيل، فقد اكتشفت فيه ما لم أكن أعرفه... وعلى أي حال، فإنني لم أصبح ما أنا عليه الآن إلا في البرازيل"[9]. عين عام 1938م أستاذاً في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا بباريس (L'école pratique des hautes études)، وعقب نهاية الحرب العالمية الثانية ناقش بروديل أطروحته في جامعة السربون سنة 1947م، وهي السنة التي تولى فيها إدارة مجلة الحوليات .

ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

(Les Annales)[10]كما جرى انتخابه على كرسي التاريخ الحديث بالكوليج دو فرانس (Collège de France)عام 1949م، خلفاً للوسيان فيفر الذي أحيل إلى التقاعد عام 1947م. وقد درسّ بروديل في هذه الكلية مدة 23 عاماً وإلى غاية عام 1972م.[11]

كما أسس بروديل أيضاً دار علوم الإنسان في باريس عام 1962م. وبعدها أحيل إلى التقاعد عام 1972م، وحصل عام 1985م على أعلى تتويج وهو الالتحاق بالأكاديمية الفرنسية (L'académie de Française). توفي في 28 نوفمبر من السنة نفسها[12] ، عن عمر يناهز ثلاثة وثمانين عاماً[13] وبروديل عند وفاته كان المؤرخ الأكاديمي الأكثر شهرة وفاعلية في العالم، هذه الفاعلية التي زادت بسبب الكتب والمؤلفات التي تركها بعد وفاته. [14]

2- منهجه في كتابة التاريخ:

لقد كان علم التاريخ قبل ظهور مجلة الحوليات في بداية القرن العشرين، يركز بحثه حول الأحداث الهامة، وحول الشخصيات السياسة والعسكرية الكبرى في تاريخ الإنسانية. فقامت هذه المجلة بتجديد علم التاريخ الحديث[15]، وفرضت نظرة يمكن وصفها بالشاملة (التاريخ الشامل) لأنها منفتحة على مختلف العلوم الإنسانية، وعلى الجغرافيا والاقتصاد بشكل خاصّ[16]، وكان لبروديل المؤرخ الحولياتي الدور الريادي في تطوير منهجية كتابة التاريخ، إذ أنه كان يدعوا إلى توجيه نظر المؤرخ نحو مسائل جديدة أعمق من تلك التي يدعوا إليها التاريخ التقليدي. كما أنه كان يرى بأن الذبذبات السريعة للأحداث ذات البعد الفردي للإنسان، تشبه الأمواج على سطح البحر، ومن هنا وجب على المؤرخ أن يغوص ويُبحر في المياه العميقة حتّى يصل إلى التاريخ الأكثر وضوحاً للجماعات البشرية في علاقتها بمحيطها[17] ، ولا يكون ذلك إلا بتجاوز المنهج الشائع في البحوث التاريخية التي تحصر رؤية المؤرخ في تناول دور الملوك والقادة والأبطال دون الأخذ بعين الاعتبار العوامل الاجتماعية الأخرى[18]. ويقول بروديل معبراً عن هذا المعنى:" نحن ضد القول الذي يرى بأن الرجال يصنعون التاريخ، لأن التاريخ أيضاً يمكنه أن يصنع الرجال."

إذن يمكن القول أن القاعدة الأساسية التي بنى عليها بروديل منهجه الجديد هي التخلي عن فكرة الاعتقاد بوجود قطيعة بين الماضي والحاضر[19]. وهكذا يكون بروديل قد قلب التصور الخطي للزمن (الأفقي) الذي يرتكز على التاريخ التقليدي، وعوضه بزمن واقف (عمودي)، لا يختلف فيه الماضي عن الحاضر وعن المستقبل[20]، فالواقع الاجتماعي لا يختلف عن الواقع الثقافي والسياسي والاقتصادي[21]. ويفضل بروديل الثوابت التي تستغرق أزمنة

صورة الآخر في كتابات بروديل: (الإسلام -القضية الموريسكية – اليهود)
بوجلال مسعودة ، المجلد الخامس عشـر، العدد 2 ديسمبر 2025،
ص ص 63- 83
DOI: 10.54242/1702-015-002-005
ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

طويلة ومتفاوتة ويجعل من الحدث وهماً، وهذا ما يوضحه بقوله:" في التحليل التاريخي، ومن وجهة نظري، فإن الزمن الطويل هو الذي ينتصر دائماً، لأنه ينفي مجموعة من الأحداث".[22]

كما عمل بروديل على استبدال التاريخ الحدثي، بالتاريخ -المشكلة، بهدف الإحاطة بوقائع الاجتماع البشري كلها، وبتعدد الأزمنة التاريخية وتفاوتها في الزمن الواحد[23]. وهكذا فالتاريخ البروديلي قد اتخذ وجهين متكاملين: فمن جهة يدّرس الوقائع الاجتماعية كلها بذاتها ولذاتها. ويدرس من جهة أخرى تشابك هذه الوقائع وتفاعلها وتمفصُلها، بطريقة تستبعد كل تفسير أو تحليل جزئي وأحادي الجانب[24].

لقد سعى إلى جعل التاريخ، تاريخاً شاملاً من خلال إدراك كل ما هو اجتماعي في حركة واحدة للوصول إلى ما يسميه التاريخ الكلي[25]؛ لكن ليتمكن المؤرخ من إدراك واستحضار كل العوامل المحيطة بالواقعة التاريخية في تعددها وتنوعها يتطلب منه هذا ثقافة واسعة وأدوات منهجية ومعطيات معرفية من حقول متعددة (جغرافيا، اقتصاد، علم اجتماع، علم النفس...الخ)، وكل هذا لكي يتحقق للمؤرخ إمكانية الوصول إلى "الرؤية الكلية أو الكاملة" للواقعة التاريخية، وهذه الرؤية الكلية هي المطلب الرئيسي في منهجه التاريخي والتي تكون عن طريق الاستفادة والانفتاح على مناهج العلوم الأخرى[26].

ويعد اقتراح بروديل لإعادة تنظيم وتوحيد جميع العلوم الاجتماعية حول برنامج موحد وقائم على فكرة الأمد الطويل، بمثابة الثورة في علم التاريخ نفسه. كونه سيمهد لانقلاب جذري للتصور الذي يسمح لجميع علوم الإنسان بالتكلم بلغة واحدة[27]. وعليه ينبغي أن تتكامل جميع العلوم الاجتماعية لأن التاريخ القائم على الأمد الطويل يجب أن يكون شاملاً. بالإضافة إلى أن هذا الانفتاح يسمح بمحافظة كل علم على خصوصيته إلى الحد الذي يمكن من خلاله تمييزه عن غيره[28].

كما ركز بروديل في منهجه التاريخي أيضاً على فكرة الزمان والمكان، وهذا ما ضمنه في أطروحته التي مزج فيها بين التاريخ والجغرافيا وبذلك وسع حقل التاريخ ليشمل زمانية المكان أو المجال (العالم المتوسطي)، فمركز الاهتمام في الدراسة ليس شخصية فيليب الثاني بل المجال البحري أي المتوسط في القرن 16م[29]. فهو يقول:" الزمن والمدة والتاريخ تفرض نفسها بالفعل، أو يجب أن تفرض نفسها على جميع العلوم الإنسانية[30] ؛ وهنا نلاحظ أنه تمّ إعطاء مكانة متميزة للمكان والذي يبدو أنه الأكثر تلاؤماً مع مفهوم الأمد الطويل[31]. وهذا ما يوضحه

DOI: 10.54242/1702-015-002-005
ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

بروديل في قوله:" إن هناك ما هو أكثر بطئاً من تاريخ الحضارات، وهو يكاد يكون ثابت لا يتحرك، إنه تاريخ البشر في علاقاتهم بالأرض التي يعيشون عليها"[32].

إن هذه الكتابة التاريخية المرتكزة على الجغرافيا والأنظمة البيئية قد ساهمت في التقليل من دور الإنسان وفاعليته[33]، واستبعاده عن المركز في التاريخ البروديلي، ليس استبعادا مطلقاً، بل هو استبعاد الهدف منه تجاوز تلك القراءة التاريخية التي تجعل من الواقع الإنساني غاية، وتحصر أحداث التاريخ في الشخصيات البطولية. مستبعدة عوامل أخرى عديدة ثقافية واقتصادية واجتماعية[34].

وهكذا يؤكد بروديل أن التاريخ متعدد الاتجاهات ولا يسير دوما إلى الأمام، بل يتراجع كذلك، وأنه جدلية للمجال والزمن المتعدد (زمن جغرافي- زمن اجتماعي وزمن فردي)[35].

وعليه وحسب رأي بروديل، يمكن القول أن الوصول إلى التاريخ شبه الثابت[36]؛ يكون عن طريق الدمج بين التاريخ الجغرافي والأمد الطويل (أي دمج المكان في الزمان) وهما المكانان المفضلان لمقاومة التغيير[37]. ويتحدث عن هذا قائلاً:" ليسهل علينا فهم الأمد الطويل، يجب أن نذكر ونفهم العائق الجغرافي"؛ إن الجغرافيا هي الوسيلة التي أبطأت سرعة التاريخ بامتياز[38]. وعليه فإن التاريخ البروديلي لم يكن تاريخاً اقتصاديا واجتماعياً فقط، بل هو أيضاً تاريخ جغرافي، وديمغرافي، وثقافي، وسياسي وعسكري، وبالتالي فهو تاريخ شمولي[39]. يركز على المحسوس وهذا ما يوضحه في قوله:" إننا نفضّل معاينة التجارب الحسية، بدل البحث عن تعريف مجرد[40]. ومن دون شك أن الميزة التي انفرد بها التأريخ البروديلي هي عملية كشفه عن البنى التحتية للتاريخ البشري، لكن هذا لا يعني أنه مؤرخ لما فات وانقضى بقدر ما يعني أنه مؤرخ لحياتنا الحاضرة، بما تحتويه من وقائع تصل إلينا من أزمنة سحيقة القدم[41]. وعليه فإن التاريخ البروديلي هو تاريخ عالمي، ذو نظرة واسعة تقوم على المنهج المقارني عبر الزمن الأكثر طولاً والمكان الأكثر اتساعا[42].

إن بروديل هو أول من جمع بين مختلف العلوم الإنسانية بمناهجها وأدواتها في مقاربة واحدة وشاملة[43]. ومعه تخطى التاريخ نفسه ليصبح جغرافياً واجتماعياً واقتصادياً في آن واحد وعلى قدم المساواة[44]. وبتناوله لمجمل وقائع الاجتماع البشري قد استبعد السرد التسلسلي للأحداث التاريخية، واعتمد في أسلوب كتابته على الجمع بين الوصف والتحليل والمقارنة وأصبح كل شيء في نظره تاريخ[45]. وإن أحسن ما نختم به حديثنا عن منهج بروديل في كتابة التاريخ هو قوله:" هكذا انتهيت إلى تفكيك الزمن. ذلك أن زمن التاريخ ليس دفقاً واحداً؛

ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

وإنما هو شبيه بصفحات، من هنا ينبغي النظر إلى التاريخ عمودياً... إن ما يحصل في الأعلى يذهب نحو الأسفل، إلا أنه لا يبلغه دائما؛ وعلى عكس ذلك، فإن ما يحصل ببطء شديد على مقربة من الأرض لا يبلغ السطح دائما. نحن أمام تواريخ متوازية، ذات سرع مختلفة. وقد بقيت سجيناً لهذا التقسيم"[46].

3-الإسلام في المتخيل البروديلي:

انتشر الإسلام في ثلاث قارات في أقل من قرن. وفرض نفسه على الثقافات والمرجعيات السائدة في هذه الفضاءات بكل الطرق الممكنة، وغدا منافسا قويا لا سيما على مستوى البحر المتوسط لكل من الامبراطورية البيزنطية والرومانية. وهل من قبيل المصادفة أن "يُقبل الفتح الجارف للإسلام بسهولة من طرف الشرق الأدنى والمجال المزدوج لإفريقيا الشمالية وجزء من إسبانيا في نفس الوقت. ... لقد كان العالم القرطاجي أكثر استعدادا، في العمق، لاستقبال حضارة الإسلام من هضم القانون الروماني، لأن حضارة الإسلام ليست إضافة فحسب ولكنها تمثل استمرارية أيضا، والحضارة في حقيقة الأمر، ليست دينا فحسب، وإن كان الدين يوجد في قلب كل نسق ثقافي، وإنما هي فن للحياة وآلاف المواقف التي تتكرر[47].

وقد تحدث بروديل في متوسطه؛ أن هذا الأخير يحوي ثلاث حضارات هائلة، ثلاث مجموعات ثقافية، ثلاث أنماط أساسية في الاعتقاد والتفكير والعيش والأخلاق والمأكل... متجسدة في ثلاث شخصيات لا نهاية لأقدارها وكانت دائما قائمة منذ قرون وقرون، ليضع خلال ترتيبه هذا للحضارات وأقدارها الحضارة الغربية (الرومانية) في الترتيب الأول ويصفها بأنها مركز العالم، ليأتي العالم الإسلامي (الحضارة العربية- الإسلامية) في المرتبة الثانية، وهذا ما بين تأثره هو الآخر بفكرة المركزية الأوروبية للعالم، ويظهر هذا في قوله:"... الحضارة الأولى هي الحضارة الغربية، وعلى الأصح اللاتينية أو الرومانية". إنها الحضارة الأشد مقاومة بين حضارات المتوسط ... الحضارة الثانية هي الحضارة العربية-الإسلامية. وقد وصف بروديل الصراع القائم في حوض البحر المتوسط بين العالمين الإسلامي في الشرق والمسيحي في الغرب بقوله:" إن الغرب والإسلام هما كالهر والكلب، يجمعهما تعارض عميق يقوم على التنافس والعداء والاقتباس. إنهما عدوان متكاملان، الأول ابتكر الصليبية وعاشها، فيما ابتكر الثاني الجهاد وعاشه[48]. ويكمل بروديل تحليليه لهذه الفكرة وتوسيعها، دامجاً بين العنصرين الديني والحضاري في تعبير واحد. فهو يرى أن الديانات هي أكثر ما في الحضارات تفردّاً ومقاومة"[49].

صورة الآخر في كتابات بروديل: (الإسلام -القضية الموريسكية – اليهود)
بوجلال مسعودة ، المجلد الخامس عشـر، العدد 2 ديسمبر 2025،
ص ص 63- 83
DOI: 10.54242/1702-015-002-005
ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

والحقيقة أن الواقعة الإسلامية أحدثت مشكلة حقيقية للآخر، في تمثلاته النصرانية والبيزنطية، والرومانية، وإن اعتبرناها غربا مضادا. ومن منطلق فهمه لمعنى الحضارة اعتبر بروديل أن الإسلام يمثل "غربا مضادا، بكل الإلتباسات التي تتضمنها كل معارضة عميقة، حين تكون هناك منافسة وعداوة واقتباس"[50].

مما لا شك فيه أن منبت الشخصية الحضارية الإسلامية هو صحراء شبه الجزيرة العربية، لكن مداها أو أفقها هو البلاد التي افتتحها الفرسان العرب بسهولة فائقة. فقلب الإسلام هو الحيز الضيق الممتد بين كل من مكة وبغداد ودمشق والقاهرة، لكنه أكد نفسه كوريث فعلي للشرق الأوسط وتراثه، وعلى الرغم من أن الدين يشغل مركز القلب من كل نسق ثقافي، فإن الحضارة ليست دينا فحسب. لذا هضم الإسلام فضلا عن تراث النبي إبراهيم، ثقافات وسلوكات وعادات تعود إلى أزمنة سحيقة ... كذلك هو الإسلام حضارة اشتقاق وتطعيم ومن الدرجة الثانية ..."[51].

وفي كتابه "معجم الحضارات" يستعرض بروديل أهمّ حضارات العالم غير الأوروبيّة بدءاً بالإسلام في الفصول الخاصّة بالعالم الإسلامي على غرار بقيّة فصول الكتاب، ليس هناك تسلسل زمنيّ لفتوحات أو غزوات أو قيام دولة وسقوط أخرى، إذ يأخذ بروديل القارئ في رحلة مشوّقة إلى تاريخ كلّ حضارة على حدة ضمن سياقاتها التاريخيّة والجغرافيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة بأسلوب إبداعيّ في كتابة التاريخ. ويستهل حديثه بقوله: "تستغرق الحضارات زمناً طويلاً لكي تولد وتهيئ مستقرّها وتنهض، والاعتقاد بأنّ الإسلام ولد في ظرف سنوات معدودات مع (النبيّ) محمد (صلى الله عليه وسلم) هو صحيح جدّاً، لكنّه في الوقت نفسه غير صحيح، وفهم هذا الأمر صعب. لقد ولدت المسيحيّة نفسها مع المسيح وقبل المسيح بكثير، ومن دون محمّد والمسيح، لم يكن لتوجد لا المسيحيّة ولا الإسلام، إلا أنّ هذين الدينين الجديدين كانا قد اندمجا في جسم الحضارات القائمة قبلهما، وأصبحا يُمثلان روحها، وقد أسعفهما الحظّ منذ البداية، فتلقيا إرثاً غنيّاً وماضياً وحاضراً بأكمله ومستقبلاً أيضاً"[52].

فعلى غرار المسيحيّة التي ورثت الإمبراطوريّة الرومانيّة، فقد انتصب الإسلام في بداياته في الشرق الأدنى الذي يُعتبر أقدم "مفترق طرق" للبشر والشّعوب المتحضّرة وربّما الأقدم للعالم. وهذا أمر له نتيجة هائلة، وهي أنّ الحضارة الإسلاميّة قد تبنّت لحسابها الخاصّ واجبات قديمة تفرضها الجغرافيا السياسيّة، وأشكالاً مدينيّة ومؤسّسات وعادات وقواعد وطرق قديمة من الاعتقاد والعيش[53]. ففي الشّرق الأدنى العنيد، المعارض للحضور الإغريقيّ والمعتنق

صورة الآخر في كتابات بروديل: (الإسلام -القضية الموريسكية – اليهود)
بوجلال مسعودة ، المجلد الخامس عشـر، العدد 2 ديسمبر 2025،
ص ص 63- 83
DOI: 10.54242/1702-015-002-005
ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

للمسيحيّة، والذي كانت تعصف به القلاقل الدينيّة المتواصلة والعنيفة، وجدت الغزوات العربيّة الأولى (634 – 642م) موطئين مباشرين، سوريا (634م) ومصر (639م) اللتين استقبلتا الدين الجديد وانضمت لهما فارس (462م) بسرعة غير متوقّعة. واحتلّ الفاتحون العرب بسرعة الشّرق الأدنى بأكمله، وتجاوزوا حدوده كثيراً من جهة الغرب، باستثناء آسيا الصغرى الجبليّة التي دافعت عنها بيزنطية وحمتها[54].

لقد شيّد الإسلام ديناً بفضل القرآن والأحاديث النبويّة وأفعال النبيّ (صلى الله عليه وسلم)، وهو دين اتّسم بالبساطة، ظهر في وسط مدينيّ في مكة، على هامش الجزيرة العربية التي كانت بدائيّة، بحسب بروديل. ووضعت جزيرة العرب البدويّة، قوتها المحاربة الاستثنائيّة في خدمة الإسلام. ويرى أيضا أنّ دور القبائل العربيّة يلفت الأنظار إلى الطريقة التي دعم الإسلام، هذه الحضارة التي ستصبح قريبة متأنّقة جدّاً، "بواسطتها تباعاً كلّ نجاحاته تقريباً بالاعتماد على القوى الحيّة لتلك "الثقافات" المحاربة وتلك الشّعوب البدائيّة التي استوعبها في كلّ مرّة وأدخلها إلى الحضارة". والأسبقية عند محمد -صلى الله عليه وسلم- كانت تحضير هذه البقاع[55]. يغطي الإسلام سلسلة من الفضاءات المترابطة فيما بينها، والخاضعة في تخومها لتغيّرات حادّة جدّاً. لذلك فإنّ تاريخ الإسلام . في رأي بروديل . ليس تاريخاً هادئاً، ولم يكن كذلك، لكن تلك التغيّرات تظلّ نسبيّة، إذ تمتّع المسرح الإسلاميّ الشّاسع إجمالاً باستقرار ثابت. إنّ مناطق الإسلام اليوم التي سيطر عليها دائماً ومنذ زمن بعيد، تظلّ شاسعة، وهي ليست دائماً غنيّة، وهي تمتدّ من المغرب الأقصى والصحراء الأطلسيّة إلى الصين والجزر الأندونيسيّة والفلبين وجزر الشرق الأقصى، أو من داكار إلى جاكرتا[56].

ويستشهد بروديل برأي أسعد بك فيقول: إنّ الكاتب أسعد بك محقّ عندما قال "إنّ الإسلام هو الصحراء"، لكن هذه الصّحراء، أو بالأحرى هذه المجموعة من الصّحاري الشاسعة تقع من جهة بين ملاحتين وبين امتدادين من المياه المالحة هما البحر المتوسط والمحيط الهنديّ، ومن جهة أخرى بين ثلاثة تكتلات بشرية كثيفة هي: الشرق الأدنى وأوروبا وشمال إفريقيا. إنّ الإسلام هو قبل كلّ شيء "قارة انتقاليّة" تربط بين تلك الفضاءات الواسعة،[57] بالتالي طبيعة التعارض بين الشرق والغرب وأصل الإسلام. يكمن الاختلاف أولاً في التناقض المناخي: "ليس من الصعب تحديد الشرق جغرافياً. إنها المساحة الشاسعة من السهوب والصحاري في جنوب وشرق البحر الأبيض المتوسط". والصحراء بقوافلها وحراكيتها هي أيضا من صلب حضارته، فضلاً عن أنها ركيزة تجانسه البشري؛ إذن، نقول إن الإسلام هو شمول ما

ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

تبعث عنه عليه الصحراء من تعدد في عوالم الواقع البشري وفي أوجه نشاطه: لقد اعتاش الإسلام، على كبريات القوافل التي كانت تعبر دياره الواسعة، وعلى المناطق الساحلية بحضاراتها المنتشرة على كل من المتوسط والمحيط الهندي والبحر الأحمر[58].

لذلك يتميز الشرق بمناظر طبيعية صحراوية أو جافة ناتجة عن مناخ جاف وحار، في حين أن الغرب رطب ومعتدل. ويفسر غوتييه ولادة الإسلام على النحو التالي: "لم يكن الإسلام حداثة مذهلة. نشأت من خلال تطور طبيعي وتدريجي من تاريخ الشرق المبكر. عندما نعود، انطلاقًا من الإسلام، إلى أصوله خطوة بخطوة، فإننا نراه دائمًا ينبثق في الرفض، في إعادة النمو من القدم، على الجذع الشرقي القديم[59].

لقد كان الإسلام، الحضارة التي تفتقر إلى البشر، مجبراً بالأمس، على توظيف البشر الذين يجدهم في متناول يديه، وكان الافتقار المزمن للبشر شكلاً من أشكال فقره المتأصّل. والإسلام ظلّ مستفيداً مادياً من وضعيّته الجغرافيّة السياسيّة من عمليّات عبور القوافل والتجّار والسفن. ولا يمكن تصوّر هذه التحركات التجارية من دون مدن عظيمة، وهي كثيرة في عالم الإسلام، وكانت بمثابة التحركات التي تجعل حركة التنقل الشّاسعة هذه ممكنة. ويرجع بروديل توسعات الدولة العثمانية وفتوحاتها في أوروبا إلى إفتقارها للكثافة السكانية وبهذا فهو ينفي الأسباب الحقيقة للتوسع وما تبعه من توسعت رقعة الدولة العثمانية وما تبعها من توسع لصالح العالم الإسلامي آنذاك، ليبرر في الوقت ذاته ما قام به المسيحيون الإسبان تجاه بني جلدتهم من المسلمين بعد سقوط غرناطة، وهذا ما يظهر في قوله: "تبدوا الحضارات في آمادها الطويلة كناية عن واقعات تاريخية منغرسة بصلابة في حدودها الجغرافية... لكنها تعيش صراعات عنيفة ضد البعض الآخر. وها هو المتوسط في القرن 16م حافل بمثل هذه الصراعات: الإسلام المتمثل في الدولة العثمانية سيطر على بلاد البلقان المسيحية... وفي إسبانيا قام المسيحيون بسحق المسلمين من دون رحمة. هذان السلوكان يخضعان إلى على نحو أساسي للشروط الديمغرافية السكانية في البلاد المسيحية والفقر الديمغرافي في الإمبراطورية العثمانية".[60]

ولا تختلف النظرة البروديلية للعالم الإسلامي على أنه ذلك العالم الذي كان يقبع في التخلف والتأخر عن ركب العالم الغربي مثله مثل بقية الكتاب المتحاملين على الإسلام متهمين إياه بالعصور المظلمة، ويظهر ذلك في قوله:"... على أن المدن الإسلامية وإن لم تعرف في واقع الأمر الحريات السياسية ولا ما تتبعه التجمعات السكانية الغربية من إحساس معماري منظم

صورة الآخر في كتابات بروديل: (الإسلام -القضية الموريسكية – اليهود)
بوجلال مسعودة ، المجلد الخامس عشـر، العدد 2 ديسمبر 2025،
ص ص 63- 83
DOI: 10.54242/1702-015-002-005
ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

فيما سلكت من مسيرة التنمية في الوقت نفسه لم تعرف الوظائف التي تؤدي إلى نشأة المدن مع ما كانت تأوي كثيرا من طبقة بورجوازية ذات تفكير تقدمي إلى جانب طوائف فقراء ونشالين وغشاشين..."[61]. ويضيف قائلا بأن الحياة الروحية والفكرية لأوروبا كانت مطبوعة دائما بالطابع العنيف للتغيير والتجديد. وهذا ما يميزها عن العالم الإسلامي الذي ظل جامدا لفترة طويلة من الزمن بل ولا يزال حتى الآن. من هنا سر تفوق أوروبا على العالم الإسلامي الذي كان متفوقا عليها يوما ما. فهي - أي أوروبا - تحب القطيعات والطفرات والعواصف الفكرية والثورات العلمية بحثا عن معنى آخر جديد وأفضل باستمرار. ولكن رغم ذلك فإن هذه المتغيرات لا ينبغي أن تنسينا تلك الاستمرارية التواصلية العنيدة لفكرها وحضارتها. وهذه الاستمرارية التواصلية واضحة عبر التجارب المتتالية للفكر الأوروبي بدءا من المجلد اللاهوتي الكبير للقديس توما الأكويني وانتهاءً بمقال في المنهج لديكارت مرورا بعصر النهضة والإصلاح الديني وانتهاء بالثورة الفرنسية ثم الثورة الصناعية التي كانت شكلت قطيعة كبرى في تاريخ البشرية.

لقد خلقت الدورة الأولى من الغزوات وهي الدورة العربية، إمبراطورية ودولة، لكنها لم تخلق حضارة. ويعتبر بروديل أنّ ازدهار الإسلام وعظمته يعودان إلى ما بين القرنين الثامن عشر والثاني عشر، وكلّ الباحثين مجمعون على ذلك، لكن الخلاف يتعلق باللحظة التي بدأ فيها التقهقر. لقد بدأ التراجع الحاسم منذ القرن الثالث عشر، لكن هذا يعني الخلط بين أمرين اثنين جدّ مختلفين: نهاية هيمنة ونهاية حضارة. من الواضح أنّ الإسلام فقد آنذاك مركز الريادة، لكن تقهقره الخطير لم يبدأ إلا في القرن الثامن عشر. إنّ قدر الإسلام هو قدر الكثير من الأمم التي تعتبر أمماً متخلّفة اليوم، لأنّها تخلّفت عن ركب الثورة الصناعيّة القادرة على جعل العالم يتقدّم بالوتيرة نفسها للآلة نفسها. إلا أنّ الإسلام لم يمت بصفته حضارة، جرّاء هذا الإخفاق وعدم النجاح، "لقد تأخّر الإسلام عن أوروبا بقرنين على المستوى الماديّ فقط، لكن أيّ قرنين!"[62].

ويضيف قائلا: لم يتمكن الأتراك ولم يكونوا يستطيعوا رغم نظامهم وجودة حروبهم وعتادهم أن يصمدوا في وجه الغرب وكانت الغلبة للعالم الغربي والحضارة الغربية، وكل العلاقات الخارجية لم تكف للمحافظة على الدولة التركية التي كانت مهددة بواسطة الحرب، تمكنت من تطوير الإنسان والتكنولوجيا والإنتاج. لقد كان الإسلام ذلك العالم الذي ستصيره أوروبا المنتصرة على مستوى الكرة الأرضية كلها، فيما بعد. ولكن علينا ألا ننسى نقاط الضعف

ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

التي كانت تعتري ذلك الجسم الإسلامي الضخم: الحاجة الدائمة إلى البشر، عدم اكتمال الوسائل التقنية، الصراعات الداخلية التي كان الدين حجتها بقدر ما كان سببها، صعوبة السيطرة على الصحراء الباردة، وأخيراً ذلك الضعف الناجم عن وقوع الإسلام أسير نجاحاته السهلة وأسير إحساسه بأنه مركز العالم وبأنه وجد حلولاً ناجعة لكل شيء من دون أن يجتهد سعياً وراء ابتكار غيرها. فالبحارة العرب، مثلا، كانوا يعرفون كلاً من جهتي إفريقيا الأطلسية والهندية، وكانوا يقدّرون أيضا أن المحيطين متصلان عند سواحلها الجنوبية، لكنهم قنِعوا بمعرفتهم وتقديراتهم ولم يهتموا باستكمالها وتوظيفها في عمليات الملاحة البحرية[63].

ومنذ القرن 16م وصولا إلى القرن 18م بدأ الانقلاب النهائي بين الشرق والغرب هذا الأخير الذي استولى وسيطر على طرق التجارة والبحر فتضاعفت الأسعار الأوربية وأصبحت هناك مستعمرات وقنصليات أوربية، وتجارة في طريقها إلى الغزو الاقتصادي، وكثرة الأبحاث العلمية وأرسلت البعثات التبشيرية الكاثوليكية لنشر المسيحية وغيرها من التطورات التي شهدتها أوروبا مما أدى إلى محو الشرق عن طريق عالم الغرب، إنه محو تابع للغالب، ألا وهو العالم الغربي كانت تركيا الكبرى بحاجة إلى حرفيين ومختصين في البناء البحري وكذا بحارة وغيرها. ومن هنا "فإن الحضارات هي الحرب والكراهية، وقسم هائل من الظلام يأكل نصفها تقريبًا. الكراهية هم من يصنعونها ويتغذون عليها ويعيشون عليها". ويرى بروديل "أن الإسلام في مواجهة الغرب هو القط في مواجهة الكلب يجمعهما تعارض عميق يقوم على التنافس والعداء والاقتباس، إنهما عدوان متكاملان الأول ابتكر الصليبية وعاشها فيما الثاني ابتكر الجهاد وعاشه"[64].

وهكذا استولت أوروبا على مفتاح العالم، وعرفت كيفية استخدامه، ذلك لأنها كانت مهيأة عقليًا وماديًا له، وقبل وقت طويل، بسبب امتلاكها القوة والمعرفة والمهارات والقدرة الكافية على العنف وفي العمل الجماعي المكرس لأوروبا، كل هذا كان مسؤولاً عن الفصل الخاص بالأوروبيين خارج أوروبا وعن التوسع الاستعماري. وفي الأساس، البحر الأبيض المتوسط البروديلي هو بحيرة غربية؛ حيث الإسلام دخيل كما يرى بذلك بيران وغيره، أين يبقى الإسلام موطنه الأصلي الصحراء، التي ميزته خلقيًا؛ وهكذا يكون بروديل ضمن سلسلة طويلة من المؤلفين الغربيين من أمثال: بول، فاليري، بيران، ... الخ، ممن فكروا في البحر الأبيض المتوسط منذ القرن 19م وحتى إنتهاء الاستعمار كبحر الهيمنة الأوروبية[65].

4-القضية الموريسكية:

ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

إن القضية الموريسكية ما هي إلا حلقة صغيرة من حلقات الصراع الكبير في البحر الأبيض المتوسط بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي، هذا الصراع الأبدي أو ما يمكن أن نسميه (قضية الشرق)، أو نقاش وحوار الحضارات، وفي هذه اللعبة يكون الربح والغلبة بالتناوب مرة لصالح العالم الإسلامي (الشرق) وأخرى لصالح العالم المسيحي (الغرب).

خلال القرن 16م وبعد سقوط غرناطة في يد الإسبان الكاثوليك كتتويج لانتصارات كانت قد بدأت تتلاحق من القرن 11م، وكوجه من وجوه الصراع الديني، أو بمعنى أوضح صراع حضاري، بين المسيحية والإسلام، والذي سوف يكون حله صعب من طرف الموريسكيين حيث أنهم قد كانوا يتلقون ويتعرضون دائما لكل أنواع العنف والتهميش، إلى أن تم نفيهم نهائيا في سنة 1609- 1614م. وقد اتخذ هذا الصراع شكلا استيطانياً ضد شعب (الموريسك) أي المسلمين..."، ويضيف قائلا: "... لذا نجد كل ما يمكن أن يقال في الاستعمار مجسدا في إسبانيا: النهب، الاعتداء، القتل، الاستبداد، المجازر، والاضطهاد الديني... ومثل هذا الاستعمار ليس ثمرة تحولات اقتصادية واجتماعية، بل هو نتيجة مباشرة للسيطرة السياسية"[(66)].

لم يعان الموريسكيون من مشكل واحد، بل كان هناك مشاكل عديدة، إنه مشكل المجتمعات والحضارات التي تعاني من خطر الغرق والذوبان، مع العلم أن هذه الأخيرة ليست على نفس المستوى من الضعف والانحطاط وقضية تزامن الإسترداد والاعتناق يشرح هذا مسبقا. وقد بدأت المشاكل والمعاناة في القرن 16م كما أن هذه الأخيرة لم تكن من نفس النوع وإنما كانت عبارة عن مجموعة من الاختلافات التي أوجدتها السياسة الاسبانية، ففي غرناطة مثلا سنة 1499م أصدر الكاردينال سيسنيروس أمرا حكوميا باعتناق المسيحية وكان هذا ردا على رأي السلطات المحلية واستجابة ووفاءا للوعد الذي تمّ قطعه من قبل الملوك الكاثوليك سنة 1492 والذي يقضي بمنحهم الحرية الدينية (حرية ممارسة ديانتهم) ونتيجة لهذا قام المسلمون بالعديد من المظاهرات التي أدت إلى انتفاضات عديدة. ويذكر السفير (فليب الثاني) أن المسيحيين القدماء هم الذين دفعوا بالموريسكيين لمثل هذا التمرد، بسبب دفعهم إلى فقدان الأمل في الوصول إلى حلول لمشاكلهم وكذا رجوعهم إلى حياتهم الطبيعية كما في السابق، وأيضا تعدي شيوخ المسيحيين على زوجاتهم (زوجات الموريسكيين) وكذا قيامهم بأعمال السرقة والقتل، والنهب والتمرد عن القانون وبشكل جماعي فاحش ومفرط، وعلى حد قوله: ألا تُدين هذه الأعمال كلها اسبانيا المسيحية؟

صورة الآخر في كتابات بروديل: (الإسلام -القضية الموريسكية – اليهود)
بوجلال مسعودة ، المجلد الخامس عشـر، العدد 2 ديسمبر 2025،
ص ص 63- 83
DOI: 10.54242/1702-015-002-005
ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

بدأ العمل وبقوة بعد قرار الطرد النهائي سنة 1609م على محاربة كل ما يمت بصلة للإسلام، وهذا كله لم يمنع فيليب الثاني من الحكم بالإعدام على حضارة الموريسك بأكملها، حيث تم منع الموريسكيين من ارتداء الملابس الرجالية والنسائية التي لها علاقة بالإسلام، ومن ذلك مثلا منع النساء من ارتداء الحجاب (غطاء الرأس) في الشارع، كما تم غلق المنازل والمقاهي الإسلامية، ومنع الموريسكيين أيضا من الاحتفال بالمناسبات الدينية، ومن استعمال الحمامات العامة ومنعهم حتى من استعمال اللغة العربية[67]. وباختصار يمكن القول أن الحكومة الاسبانية عملت على مطاردة ومنع كل ما يمكنه أن يؤدي إلى مواصلة عيش أو استمرارية الإسلام في أرضها. ويمكن أن نستدل على ذلك بما ذكره بروديل:"... من نتائج الإضطهاد الشامل الذي انتهى بالمجازر والسبي والأشغال الشاقة بعد مصادرة أملاك المسلمين وطردهم منها... ولأن هذا كله لم يحل دون تكاثر من تبقى من الموريسك في إسبانيا... فأمر الملك بإجبار الرجال منهم على الخدمة في البواخر للحؤول دون تناسلهم"[68].

ويمكن أن نستشف موقف بروديل الشخصي من القضية الموريسكية موضحا بأن موقفه هذا ليس مبررا بعواطف تضع إسبانيا في موقع السجال من محاكمتها على ضوء ما فعله ملوكها بمسلمي الأندلس، أو الحكم عليها ما إن كانت محقة في سلوكاتها وتصرفاته تلك أم لا، في ظل تعاطف جميع المؤرخين مع القضية الموريسكية، ويرجع موقف إسبانيا وتصرفاتها غير المبررة مع الموريسكيين إلى "أن الموريسك واجهوا الحضارة الغربية المفروضة عليهم بالرفض متوسلين المحافظة على دينهم وأزيائهم وروابطهم العاطفية التي كانت تشدهم إلى عوالم الإسلام. وفي المقابل كان يستحيل على إسبانيا التعايش مع مركز إسلامي يقوم في قلبها، فوجدت نفسها بين خيارين اثنين: إما اقتلاع ذلك المركز من جذوره، إما التعايش معه بغية دمجه وهضمه على نحو شامل...لتختار الحد الأكثر جذرية أو راديكالية. وهكذا فإن حال الموريسك، ما هو إلا فصل من فصول الصراع حضاري يستمر قرونا طويلة بين الشرق والغرب اللذين يتبادلان الغنى والفقر، التفوق والتأخر، ويتناوبانهما[69].

إن ما حدث في إسبانيا تجاه الموريسكيين الأندلسيين يمكن اعتباره استعمارًا حقيقياً، وهذا بالنظر إلى كل ما تعرضوا له من نهب، واعتداء، وقتل، واستبداد، ومجازر، واضطهاد، ديني...الخ، ومثل هذا الاستعمار ليس ثمرة تحولات اقتصادية واجتماعية، بل هو نتيجة مباشرة للسيطرة السياسية، وهذا ما يتضح في إرغامهم على اعتناق الدين المسيحي. ويتساءل هنا

صورة الآخر في كتابات بروديل: (الإسلام -القضية الموريسكية – اليهود)
بوجلال مسعودة ، المجلد الخامس عشـر، العدد 2 ديسمبر 2025،
ص ص 63- 83
DOI: 10.54242/1702-015-002-005
ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

بروديل عن نطاق الطرد الجماعي للموريسكيين وفشل الاندماج؛ كان هذا أمرًا لا مفر منه بسبب رفض الموريسكون للحضارة المسيحية، وكراهيتهم لها، "الكراهية العنصرية"[70].

والشيء الأكيد أن الحضارة الإسلامية قد أثرت تأثيرا كبيرا على المقيمين من الموريسكيين أنفسهم بالرغم من أن اسبانيا كانت تسعى جاهدة إلى طمس الإسلام والحضارة الإسلامية على مر العصور. إلا أن اسبانيا ورغم جهودها لم تتمكن من محو هذه البصمة العربية الإسلامية من الأراضي الأيبيرية[71]، ولم تستطع تغيير اللون الأسود لأعين الأندلسيين، ولا تغيير آلاف الأسماء والكلمات العربية التي لا تزال مطبوعة في لغة الأسبان وحتى جارتها البرتغال. إن المورسيكيين وبالرغم من أنهم كانوا مذمومين ومختلطين مع غيرهم، إلا أنهم سيبقون دائما وأبدا، لأن لهم علامة وبصمة لا تمحى ولا يمكن تجاهلها بمرور الزمن.

5-الطائفة اليهودية:

لقد كانت هناك بلا شك حضارة يهودية، كانت فريدة من نوعها لدرجة أنه لا يُعترف بها دائمًا كحضارة أصيلة. ومع ذلك فقد مارست نفوذها، ونقلت بعض القيم الثقافية، وقاومت قيمًا أخرى، وقبلت أحيانًا، ورفضت أحيانًا: لقد امتلكت كل الصفات التي حددنا بها الحضارة. صحيح أنها لم تكن متجذرة في أي مكان أو كانت متجذرة نظريًا فقط؛ ولم تخضع لأي ضرورات جغرافية ثابتة وغير متغيرة. وكانت هذه واحدة من أكثر ميزاته الأصلية، ولكنها ليست الوحيدة. حضارة لا جدال فيها. لقد كان أمر هذه الحضارة متناثرا، مثل قطرات الزيت الصغيرة، فوق المياه العميقة للحضارات الأخرى، ولم تمتزج بها أبدا، بل كانت تعتمد عليها دائما،[72] وهي بذلك تنتمي لحضارات الشتات كالأرمن، مسيحيوا شمال إفريقيا، الموريسكيون...الخ[73]. وفي خضم الصراع والحوار والتنافس بين الحضارتين (الشرق والغرب) في الغالب اليهود هم العدو الأصغر حجما. لكن ذلك الخصم يمتلك امكانات هائلة وغريبة، فحين كان أمير يضطهدهم هناك آخر يحميهم واقتصاد يخدعهم وآخر ينفعهم وفي حين هناك حضارة تطردهم خارج حيزها الجغرافي هناك أخرى تستقبلهم فقد طردتهم إسبانيا في 1492 وتركيا استقبلتهم وربما كانت سعيدة بفرصة استخدامهم كقوة مضادة ضد اليونانيين.[74]

اليهودي يمتلك عادة القدرة على استخدام الضغوطات السياسية والمالية الملتوية التي يحسنها ويجيدها، كما كان لديهم أيضا أسلحة الضعفاء: الاستكانة، الخضوع، الحيلة، الشجاعة، هذا فضلا عن الشجاعة والبطولة ويظهر للمؤرخين دوما أن اليهود قادرون على لقد أثبتوا أنهم سريعون في التأقلم، سواء كان لقاءهم مع الحضارة دائمًا أو قصير الأمد؛ تكيفوا

ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

بنفس السرعة مع المواقف الاجتماعية المقدمة لهم أو المفروضة عليهم، "التأقلم مع أي محيط يوجدون فيه فهم التلاميذ المطيعون لأي حضارة تتبناهم سواء كانوا كتاب أو فنانين، فهم ليسوا بالضرورة كذلك بل تأقلموا مع المجتمع سواء كانوا مخيرين أو مجبرين أو ما يسميه علماء الاجتماع "الشخصية الأساس". لقد ظلوا منغلقين داخل معتقداتهم، في مركز الكون الذي لا يمكن لشيء أن يزيحهم منه، والعناد والرفض اليائس هذان هما إثنان من العلامات الرئيسية في القدر أو المصير اليهودي"[75].

لكن اليهود لا يشكلون عرقاً، لأنهم جماعاتهم الموزعة مرتبطة بيولوجيا بالشعوب التي تقيم في كنفها قرونا طويلة، وذلك بفعل تمازج الأعراق، ولأن الجماعات اليهودية غالباً ما نشأت من اعتناق جماعات محلية للدين اليهودي، ولم تعش منغلقة على نفسها. ولم يعيشوا على انفراد ولا حملوا شارات تميزهم ولا سكنوا دائما في أحياء خاصة، فليست روابط الدم هي من حملت الجماعات اليهودية على البقاء والاستمرار، بل هو عداء الآخرين لها وعداؤها للآخرين ما أتاحا بقاءها واستمرارها. والمسألة اليهودية ليست مسألة ديانة فحسب، بل هي نتيجة مجموعة متراصة من العادات والمعتقدات والموروثات[76].

فما كانت مدينة تطردهم حتى كانوا يبحثون عن مدينة أخرى يحطون فيها رحالهم. وبحثهم الدائم عن موطئ قدم لهم نشرهم في كل مكان. وهذا ما ساعدهم على أن يكونوا من كبار حرفيي التبادل في نقل الفكر والعلوم العربية إلى الغرب، وفن الطباعة للدولة العثمانية. فكانوا يشكلون شبكة تجارية هامة في العالم الذي انتشروا في أرجائه كلها[77]. فبعد طردهم من إسبانيا عام م1492، أخذ اليهود فن الطباعة معهم إلى الدولة العثمانية. وبحلول عام 1550م، كانوا قد ترجموا جميع أنواع الكتب إلى اللغة العبرية.[78]

ويوضح بيلون بقوله: أولئك الذين غادروا إسبانيا وألمانيا والمجر علَّموا لغات تلك البلدان لأطفالهم؛ وتعلم أطفالهم لغات الأمم التي يعيشون، قد تكون اليونانية أو السلافية أو التركية أو العربية أو الأرمنية أو الإيطالية. واليهود الذين يعيشون في تركيا يتحدثون عادة أربع أو خمس لغات: وهناك العديد منهم يعرفون عشر أو اثنتي عشرة لغة[79].

لقد كان بنو إسرائيل يسيرون في اتجاه قدرهم: الشتات، وهو قدر وحدوي لكن على مستوى العالم كله. وقدرهم هذا يتمثل في بقائهم نواة صلبة ترفض الذوبان، أي بقائهم حضارة أمينة لنفسها[80]، ففي إسبانيا في العصور الوسطى على سبيل المثال، وحتى الاضطهاد العنيف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، مالت المجتمعات اليهودية إلى تشكيل شبكة

صورة الآخر في كتابات بروديل: (الإسلام -القضية الموريسكية – اليهود)
بوجلال مسعودة ، المجلد الخامس عشـر، العدد 2 ديسمبر 2025،
ص ص 63- 83
DOI: 10.54242/1702-015-002-005
ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

متماسكة إلى حد ما، أو نوع من الأمة الطائفية، أو الملة كما أطلق عليها الأتراك، ومنذ القرن الخامس عشر، كان هناك تواجد يهودي متزايد نتيجة للأعداد الكبيرة منهم[81].

لكن مثل هذه الاختلافات لا يمكن أن تمنع وجود حضارة يهودية في حد ذاتها، حضارة مليئة بالحيوية والحركة، وبالتأكيد ليست خاملة أو "متحجرة"، كما يسميها أرنولد توينبي. على العكس من ذلك، فقد كان يقظًا وعدوانيًا على حد سواء، اجتاحت من وقت لآخر ثورات مسيحية، كانوا في كل مكان؛ على الرغم من أوامر الطرد، لم يغادروا دائمًا الأرض المحرمة، وقد يعودون[82].

ويمكن أن نستشف موقف بروديل الشخصي من القضية الموريسكية واليهودية في قوله:"... فضلاً عن تجنب الأخذ بأحكام الأخلاقيين المبسطة التي ترسم خطاً فاصلاً بين الصالح والسيئ وبين الخير والشر. إنني أرفض اتهام إسبانيا بالإجرام في حق اليهود، لأنه ليس من حضارة في التاريخ كله قامت بتفضيل الآخر على نفسها. أقول هذا في الوقت نفسه الذي أقف فيه، ومهما حصل، إلى جانب جميع الذين يسلبون حريتهم وممتلكاتهم وتنتهك أجسامهم وتحتقر معتقداتهم، أي إنني أقف إلى جانب كل من اليهود والموريسك والبروتستانت في إسبانيا. لكن موقفي هذا، فضلاً عن أحاسيسي ومشاعري، لا علاقة له البتة بحقيقة المشكلة التاريخية المطروحة، فليس عقلانيا ولا مجديا الحديث عن إسبانيا بوصفها بلدا عنصريا في القرن السادس عشر. فما جرى فيها كان يجري في الوقت عينه في كل من فرنسا وألمانيا وإنكلترا والبندقية". ويضيف قائلا: "الحضارة الأيبيرية ... بوصفها شكلا خاصا من الحضارة الغربية. فبعد أن غمرة واجهتها وأطرافها مياه غريبة عنها هي حضارة الإسلام، كان على إسبانيا، للكي تعود أوروبية من جديد، أن تصنع من نفسها، في القرن 15م مسيحية محاربة ومصارعة، وأن ترسخ خط القسمة بينها وبين الديانتين الدخيلتين: الإسلامية واليهودية، رافضة بذلك أن تكون إفريقيا أو المشرق"[83].

كما أعطى من وجهة نظره أسباب أخرى دفعت بإسبانيا إلى طرد اليهود والموريسكيين بقوله: على المستوى السكاني، ألقى التزايد السكاني بثقله على الحياة الإقتصادية فبدأت تظهر أعمال اللصوصية والنهب والقرصنة. ولولا انفتاح حدود المتوسط باتجاه الأطلسي بشكل خاص لكان على المتوسط إيجاد حل لمشكلة تضخم عدد سكانه إما عن طريق حذف (إبادة) الفائض منهم أو عن طريق إعادة توزيع ذلك الفائض داخل حدوده. فمحاولات طرد اليهود ابتداءً من

ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

القرن الخامس عشر من المدن الإيطالية، ومن إسبانيا، كانت مؤشراً على التضخم السكاني في المتوسط. كذلك عمليات طرد الموريسك (مسلمي إسبانيا) في عهد فيليب الثاني .

خاتمة:

لقد كان فيرناند بروديل من القمم الشامخة في الكتابة والتنظير التاريخيين ليس فقط على المستوى الفرنسي بل وكذلك على المستوى العالمي وذلك لطبيعة كتاباته التاريخية العميقة في تحليلها، والرصينة في أسلوبها، والمنفتحة على بقية علوم الإنسان. وهذا ما حاول تجسيده في كتاباته لا سيما حول تاريخ البحر الأبيض المتوسط الذي كرس له الجزء الأوفر من حياته. وكبقية المؤرخين الفرنسيين يُهون من ضخامة بعض الأحداث المتعلقة بالعالم الإسلامي وقضاياه وينجذب حول النظرة المركزية الأوروبية للعالم، والتي دعا في كتاباته إلى عدم الوقوع فيها، وهو ما يجعله في تناقض تام في العديد من المحطات. وبالرغم من التزامه بالمنهجية العلمية، ولكنه لم يكن بمنأى من التأثر بنظريات المؤرخين الاستعماريين الذين استغلوا فرصة قلة المعلومات والمصادر العربية والتركية وعدم الاعتماد عليها لا سيما منها المصادر المحلية (الجزائرية)

كما أنه عاب على بعض الكتاب اهتمامهم بالجانب العسكري وإهمال باقي الجوانب التي تحكمت في العلاقات في حوض البحر المتوسط والشرق الأدنى مما يساهم في تبريرهم للحملات التي تعرضت لها المنطقة خاصة من طرف الإسبان، وأشار إلى أنه قد تحكمت فيها عدة عوامل مختلفة، ولا يمكن حصرها في ظرف أو عامل واحد، فطبيعة القوى الموجودة، إلى جانب المصالح الاقتصادية، والاستراتيجية، دون إهمال العامل الديني الحضاري، كلها تحكمت في رسم العلاقات الدولية في المتوسط والمناطق التي كانت نقاط تماس لاسيما بين الحضارتين الإسلامية والغربية خلال القرن 16م.

الهوامش:

(1)William, H, McNeill, "Fernand Braudel Historian", the Journal of Modern History, the University of Chicago Press, Vol.73, N°1, 2001, pp.134-135.

(2) جون ليتشه، جون ليشته (خمسون مفكراً أساسياً معاصراً من البنيوية إلى ما بعد الحداثة)، تر: (فاتن البستاني، مر: محمد بدوي)، ط1، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008م، ص 191.

(3) William, Op.Cit, p.135.

(4) جون ليتشه، المرجع السابق، ص ص 191-192.

(5) Fernand Braudel, Grammaire des Civilisations, Flammarion, Paris, 1995, p.50

ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

(6)فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000، ص 110.

(7)المرجع نفسه، ص ص 110-111.

(8)فرانسوا دوس، التاريخ المفتَّت من الحوليَّات إلى التاريخ الجديد، (تر: محمد الطاهر المنصوري، مر: جوزيف شريم)، ط1، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص164.

(9)مجموعة مؤلفين، فرنان بروديل، مجلة بيت الحكمة، مجلة مغربية للترجمة في العلوم الإنسانية، العدد 5، أبريل، 1987، ص 5.

(10) William, Op.Cit, pp.137-138.

(11) فراسوا دوس، المرجع السابق، ص 199.

(12) فرانسوا دوس، 2009، ص ص 20-24.

(13) فرنان، بروديل، قواعد لغة الحضارات، (تر: الهادي التيمومي، مر: فتحي ليسير)، ط1، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009م، ص24.

(14) William, Op.Cit, p.133.

(15)جاك لوغوف،" أن نبني جسور الحوار: حوار أجراه حسان العرفاوي وفاروق مردم بك مع جاك لوغوف" مجلة العالم العربي في البحث العلمي، معهد العالم العربي، باريس، العدد 7، خريف-شتاء 1996-1997م، ص45.

(16) فرنان بروديل، المرجع السابق، ص19.

(17) Heisenberg, Braudel, Op.Cit, pp.309-310.

(18) وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ (اتجاهات، مدارس، مناهج)، ط2، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013م، ص 212.

(19) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي، تر: مروان أبي سمرا، ط1، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993م، ص ص7-8.

(20) فرانسوا دوس، المرجع السابق، ص 180.

(21) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، المرجع السابق، ص 13.

(22) Braudel, (F), La Méditerranée et le monde Méditerranéen à L'époque de Philippe II, tome 2, 2 éd, Librairie Armande Colin, Paris.1966, p.520.

(23)مروان أبي سمرا، "فرنان بروديل مؤرخ المتوسط والعالم المتوسطي: الصحراء، البدو، والإسلام قطب المتوسط التاريخي"، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، العدد 17، السنة الرابعة، خريف 1992م، ص ص183-198.

(24) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، المرجع السابق، ص 8.

(25) Braudel, (F), Civilisation matérielle et Capitalisme, XVème -XVIIIème siècle, Vol,1,2,3, Armande Colin, et Vol 2, Les jeux de L'échange, Paris, p.408.

(26) وجيه كوثراني، المرجع السابق، ص ص 386-395.

(27) فرانسوا دوس، المرجع السابق، ص 173.

(28) جون ليتشه، المرجع السابق، ص ص 194-195.

ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

(29)فريد بن سليمان، المرجع السابق، ص 111.

(30) Braudel (F), Ecrits Sur L'histoire, Flammarion, Paris, 1969, p.105.

(31)فرانسوا دوس، المرجع السابق، ص178.

(32) Fernand, Ecrits Sur L'histoire…, Op.Cit, p.24.

(33) Santamaria, Ulysses, Bailey Anne,(M), "A Note on Braudel's Structure as Duration", History and theory, Wiley for Wesleyan University, February, Vol 23,N°1, 1984, p.78.

(34)فرانسوا دوس، المرجع السابق، ص180.

(35)فريد بن سليمان، المرجع السابق، ص 111.

(36) Braudel, (F), Civilisation matérielle et Capitalisme, XVème -XVIIIème siècle, Vol,1,2,3, Armande Colin, et Vol 2, Les jeux de L'échange, Paris, 1979, p.16.

(37)فرانسوا دوس، المرجع السابق، ص 176.

(38)المرجع نفسه، ص ص205-213.

(39)جاك لوغوف، المرجع السابق، ص211.

(40) Braudel, (F), Civilisation matérielle…, Op.Cit, p.199.

(41)مروان أبي سمراء، المرجع السابق، ص185.

(42)فرانسوا دوس، المرجع السابق، ص171.

(43) مروان أبي سمراء، المرجع السابق، ص 184.

(44) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، المرجع السابق، ص 11.

(45)المرجع نفسه، ص 9.

(46) فرنان بروديل، قواعد لغة الحضارات...، المرجع السابق، ص45.

(47) Braudel (F), La méditerranée, l'espace et l'histoire, Ed. Flammarion, Paris, 1985, pp.163-164.

(48) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، المرجع السابق، ص 136.

(49)وجيه كوثراني، الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل، دراسات في البحث والبحث التاريخي، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2000، ص 28.

(50) Braudel, Braudel (F), La méditerranée, l'espace et l'histoire…, Op.Cit, p.160.

(51) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، المرجع السابق، ص137.

(52) فرنان بروديل، قواعد لغة الحضارات...، المرجع السابق، ص 37.

(53)المرجع نفسه، ص ص 37-39.

(54)نفسه، ص 43.

(55)نفسه، ص 50.

(56)نفسه، ص ص59-60.

(57) نفسه، ص 64.

(58)نفسه، ص 55.

ISSN (Online): 2571-9742
ISSN (Print) : 1112-945X

(59) بولعيش، فرنان بروديل، مجلة بيت الحكمة، مجلة مغربية للترجمة في العلوم الإنسانية، أبريل 1987، العدد 5، ص ص 62-106.

(60) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، المرجع السابق، ص 138.

(61) فرنان بروديل، قواعد لغة الحضارات...، المرجع السابق، ص 74.

(62) المرجع نفسه، ص77.

(63) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، المرجع السابق، ص 55.

(64) المرجع نفسه، ص 136.

(65) Claude, Liauzu, La Méditerranée selon Fernand Braudel, Confluences Méditerranée, Automne, N°31, 1991, pp.181-186.

(66) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، المرجع السابق، ص139.

(67) المرجع نفسه، ص139.

(68) نفسه، ص140.

(69) نفسه، ص140.

(70) Claude, Liauzu, Op.Cit, p.186.

(71) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، المرجع السابق، ص 140.

(72) Braudel,(F), The Mediterranean and he Mediterranean World in the age of Philip II, Translated From the French by Sian Reynolds, Volume 2.Vol2, p.804.

(73) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، المرجع السابق، ص ص 142-141.

(74) Braudel, The Mediterranean and he Mediterranean…, Op.Cit, Vol2, p.803.

(75) Ibid, p.803.

(76) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، المرجع السابق، ص 142.

(77) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، المرجع السابق، ص 143.

(78) Braudel, The Mediterranean and he Mediterranean…, Op.Cit, Vol2, p.808.

(79) Ibid, p.809.

(80) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، المرجع السابق، ص 145.

(80) Braudel, Braudel, The Mediterranean and he Mediterranean…, Op.Cit, Vol2, p.804.

(82) Ibid, p.813.

(83) فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي...، المرجع السابق، ص 144.